

الرؤوس البشرية في الحرب، بين الترميم والاستباحة

ابتداءً من عام ١٨٦٣م، خلال حروب «الماوري» التي تفجرت بسبب تنازع عدة دول على القسم الشمالي خصوصاً من نيوزيلاندا ورغبتها بالسيطرة على تلك المنطقة ، على رأسها بريطانيا، قام الضابط الإنكليزي برتبة لواء هوريشيو جوردن روبلي Horatio Gordon Robley الذي قدم مع قوات بلاده، باقتناء قطع أثرية قيمة جداً تمثل عمق حضارة الماوري السكان الأصليين لتلك البلاد الذين قطنوها منذ أواخر الألف الأول للميلاد. وهذه القطع التي لقيت الاهتمام والعناية من قبل الضابط صاحب الميول الفنية، عبارة عن رؤوس بشرية محنطة للسكان الأصليين من الماوري تم فصلها عن الجسد بعد الوفاة، تعرف هذه الرؤوس باسم موكوموكاي Mokomokai. كان أصحابها يحملون على وجوههم وشوم دقيقة منمقة بإبداع وتناظر ساحر. بعد عدة أعوام من عودة الضابط روبلي، كانت حصيلته بحدود خمسة وثلاثين رأس من الموكوكاي. وفي كتابه Moko or Maori Tattooing الصادر عام ١٨٩٦ قام بتخصيص عدة أقسام لشروح دقيقة ومطوّلة عن هذه الشوم وفرادتها، ولاحقاً في عام ١٩٠٨ عرض بيع مجموعته للحكومة النيوزيلاندية مقابل مبلغ ألف جنيه إسترليني، لكن هذه الأخيرة رفضت عرضه حتى انتهى الأمر باقتنائها من قبل المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي.

في المقابل خلال الحرب العالمية الأولى، بحدود عام ١٩١٧، برز اسم الطبيب الضابط الإنكليزي هارولد جيليس Harold Gillies المولود في نيوزيلاندا الذي كان قد التحق بالجناح الطبي للجيش الملكي البريطاني. يعتبر جيليس مؤسس الجراحة التجميلية المعاصرة، قام بتطوير تقنيات وإجراءات طبية بالدرجة الأولى بهدف تخفيف التشويه الذي طرأ على وجوه العديد من الجنود والضباط خلال الحرب بسبب إصابتهم البالغة التي أدت إلى تدمير هيئة وجوههم وتفتتت أقسام من عظام الجمجمة بشكل لا يمكن ترميمه. ابتدأت تجاربه ومحاولاته باقتطاع أجزاء من الجلد السليم من جسد المصاب ولصقها على الوجه حتى تتماهى معه تدريجياً، ثم يعود لإجراء جراحات إضافية لتحسين الشكل ما أمكن. قام جيليس بما يقارب أحد عشر ألف جراحة لما يقارب خمسة آلاف مصاب من الجنود والضباط. ولذا تعتبر بصمته الطبية وكذلك نشأة الجراحة التجميلية في هذا السياق مناصرة لأسمى القيم الإنسانية، فقد كان لمظهر هؤلاء البشر الذين حارب كل منهم لصالح بلاده جرحاً نفسياً عميقاً لم يكن شفاؤه بأمر يسير. ولكن في بعض الحالات المستعصية بدت للجنود وجوههم مفزعة وخشي العديد منهم العودة إلى عائلاتهم، زوجاتهم و أولادهم، وأصبحت مهمة ترميم الوجوه

حاجة ملحة في فترة ما بين الحربين. لذا، قامت النحاتة الأمريكية الأصل أنا كولمن لاد Anna Coleman Ladd التي عاشت وعملت في باريس بتكريس مهارتها التقنية إلى جانب نظرتها المبدعة من أجل ابتكار حل جديد ، بأن يوارى المصاب الجزء المتضرر من وجهه خلف قناع جزئي يرسم التشوهات بصرياً. كانت أنا لاد تقوم بأخذ طبقات للوجوه المصابة لتصميم أفنعة نحاسية متممة تطلّى في كل مرة حسب لون بشرة المصاب. ولقد حازت النحاتة على «وسام جوقة الشرف» الفرنسي و «وسام القديس سافا الملكي» الصربي تقديراً لدورها الاستثنائي والملهم في هذا الإطار .